المرأة في المخيال الذكوري.
(قراءة في **"الهيمنة الذكورية"** لبيير بورديو).

د. آمال علاوشيش
جامعة الجزائر (2)

ملخص:
تشكل الهيمنة مفهوماً محورياً في التحليل الاجتماعي، هذا المقال هو قراءة تحاول تتبع مختلف المعاني التي أخدها المفهوم من قبيل الطاعة والعبودية عند بيير بورديو من خلال كتابه الموسوم: الهيمنة الذكورية.
الكلمات المفتاحية: الهيمنة -علم الاجتماع- الطاعة- العبودية...

Abstract :
Domination is a central concept of sociological analysis. So much so that a sociology of domination has made it the master word of his explanations. This article is a reading that traces the different acceptances of this concept such as servitude and obedience in Pierre Bourdieu through his book entitled masculine domination.
Keywords: Domination- sociology- servitude- obedience…

مقدمة:
من الظّواهر الّتي أثارت انتباهي منذ الطفولة حتّى قبل أن أفقه معنى للفروقات الجنسيّة وما يترتّب عنها، تلك المعاملة المتميّزة الّتي كان يحظى بها الذّكر في محيطنا الاجتماعيّ دوناً عن الأنثى، سواء في ذلك الطفل أو الرّجل أعني البالغ، إلى درجة أن استقرّ في وعيي الطفولي أنّ الذكر جنسٌ ممتازٌ ومتفوّق بلا منازع، وهو ذات الوعي الّذي ولّد تساؤلاتٍ ازداد حجمها مع الزّمن لتتحوّل إلى شبه معاناةٍ يوميةٍ تجلّت في ظواهر عديدةٍ كالعنف ضد المرأة بشتّى أشكاله، وتفضيل الذّكر على الأنثى ومنحه مراكز الرّيادة وغيرها.
إنّه الإطار العام الّذي ينصبّ فيه موضُوع هذا المقال الّذي يندرج في ميدان النّقد الاجتماعيّ(sociocritique)، ويعدّ بذلك مجالاً واسعاً ومتشعّباً ضمن الدّراسات السّوسيولوجية، وسيعتمد بالأساس على قراءةٍ متمعّنةٍ لكتاب الهيمنة الذّكورية (Domination masculine) لعالم الاجتماع الفرنسيّ المعاصر بيير بورديو(1930-2002) بما أحدثه من ثورةٍ رمزيةٍ في مجال العلوم الاجتماعيّة. هذا الأخير الّذي يقُوم مؤلّفه على أطروحةٍ أساسيةٍ يمكننا إجمالها فيما يلي: إنّ الهّيمنة الذّكورية خاصّية كونية متجذّرة في لاوعْي الأفراد ذكوراً كانوا أو إناثاً، وبالرّغم من أنّها لا تعلن عن نفسها باعتبارها معطى طبيعياً فإنّها تظلّ في الأصل بناءً تاريخياً واجتماعياً وثقافياً في آنٍ معاً تعيد مجموعة من المؤسّسات إنتاجه وتكريسه.
عرض:
يبدأ بورديو كتابه بنظرية "مفارقة المعتقد" (paradoxe de la doxa)، والمعتقد عند بورديو هو الرّأي السّائد والمشترك الّذي يخفي حقيقة الأشياء والوقائع، ومفاده أنّ "العالم أو نظام

الكون بمختلف تناقضات أو انتهاكاته وانقلاباته وجنوحاته يعدّ مقبولاً ومحترماً وكأنّ كلّ شيءٍ فيه مقبول كما هو لامحالة..."[1]، ولا يمكن عدّه مصدراً للمعرفة العملية بقدر ما هو شرعنة لا واعية في مستوى الرّأي للممارسات السّائدة وهو بذلك يقترب بشكلٍ كبيرٍ من مفهوم العائق الإبستمولوجي بالمفهوم الباشلاري، ولذلك فإنّ حلّ إشكالية الهيمنة الذكورية هو في إرجاع المعتقد إلى سمته المفارقة (paradoxal) بأن يثبت أنّه ليس مبرّراً عملياً لأن يحدث ما يحدث، إنّما هو – المعتقد- من صنيع الطّرف المهيمن ليبرّر هيمنته، وكذلك من خلال تفكيك الصّيرورات التّاريخية المسئولة عن تحوّل التّاريخ إلى "طبيعة" وتحويل الاعتباطيّة الثّقافية بأن تكون طبيعية.

في هذا السّياق يعتمد المؤلّف أداتين منهجيتن أساسيتين في نظرنا هما: أولاً: الملاحظة بالمشاركة (observation participative) باعتبار معايشته للمجتمع القبايلي بالجزائر من خلال دراسةٍ إثنوغرافية (étude éthnographique) له في السّنوات 1958 و1964.وثانياً: تحليل المحتوى(analyse du contenu) بالاعتماد على مضمون رواية فرجينيا وولف Virginia Woolf(1882-1941)[2] الموسُومة: (1927)la promenade au phare، كما أنّنا سوف نعتمد الخطوات التّالية بحسب فصول كتابه الثلاثة: الهيمنة الذكورية، وهي: الصّورة المضخّمة، الثّوابت المخفية، أوجه الدّوام والتّغير.

-أولاً: الجسد باعتباره موضعاً لفرض الهيمنة.

تشترك مجتمعات البحر الأبيض المتوسّط في النّظرة إلى الجنسين، جاعلةً من الرّجل مركز كلّ شيءٍ بخاصّةٍ في مجتمع بربر القبائل الجزائري حيث تبلغ درجاتها وأشكالها القصوى، وذلك عبر ما يسمّيه بورديو بالنظرة الفالونرجسية (phallonarcissique)أو الأندرومركزية (androcentrique)[3]حيث يعمل هذا المجتمع التّقليدي المحافظ والمتماسك على المحافظة على الهيمنة الذّكورية وتعزيزها باعتبارها الطّبيعة والأصل، وهو في نظر بورديو يشكّل نموذجاً للتّقليد الثّقافي المتوسّطي[4]، حيث تتقاسم هذه المجتمعات تلك النّظرة وإن اختلفت في درجاتها، إلاّ أنّ المجتمع القبائلي يعكس الصّورة المثلى أي الهيمنة في صورتها المثلى، ويرى بورديو في مقاربته له أنّ هذا النّظام الّذي يبدو لهم طبيعياً هو في واقع الأمر وفي الأصل بناء اجتماعيّ يعمل على تأسيس وكذا المحافظة على الهيمنة الذكورية، لتقي نفسها بذلك شرّ التّشكيك والمساءلة. وفي هذا السّياق يقول:" إنّ قوة النّظام الذّكوري تتراءى فيه أمراً يستغني عن التّبرير، ذلك أنّ الرّؤية مركزية الذكورة تفرض نفسها كأنّها محايدة، وإنّها ليسن بحاجةٍ إلى أن تعلن عن نفسها في خطبٍ تهدف إلى شرعنتها، والنّظام الاجتماعي يشتغل باعتباره آلة رمزية هائلة تصبو إلى المصادقة على الهيمنة الذكورية الّتي يتأسّس عليها..."[5]، ومعنى ذلك أنّ هناك مؤسّسات وإن كانت لا تعلن عن نفسها بشكلٍ صريح هي الّتي تعمل على تكريس هذا التّمييز والهيمنة ويضرب بورديو مثالاً بالعائلة والمدرسة والكنيسة والدولة والصّحافة[6].

بعد ذلك ينتقل إلى مقاربة الجسد الّتي تعكس الهيمنة ذاتها من خلال الاختلافات الفيزيولوجيّة الملاحظة بين الجنسين، لتُوضع بعدها تصنيفات تعسّفية مجحفة توسّع الفوارق بين الذّكور والإناث، وتتجلّى في نوعٍ من الهرمية أو التّراتبية (hiérarchie) الّتي تعتمد الإقرار بدونية الأنثى وتفوّق الذّكر عليها، وذلك من خلال ارتباطها الجسديّ أي الحسّي بكلّ ما هو سلبيّ (négatif) على عكسه هو، ويخضع الجسد بذلك إلى نوعٍ من التّرويض ليكتسب هوية جنسية باعتباره المنطقة الأبرز للفروقات الجنسية وهو ما يظهر بجلاءٍ من خلال

الثّنائيات: (أعلى-أسفل)، (أمام-وراء)، (يمين-شمال)، (مستقيم-مقوّس)، (جافّ-رطب)، (صلب-رخو)، (صعود-نزول)، (خارج-داخل)... وغيرها[7].وعلى هذا الأساس يتمّ تقسيم النّشاط أي العمل، والمكان والزّمن والأدوات (السّوق للرّجال والمنزل للنّساء، الموقد والزّربية، فترة الحمل الطويلة والسّنة الزراعيّة)[8].

يتّضح ممّا تقدّم أنّ الجسد حسب بورديو يخضع لنوعٍ من التّرويض حتّى يكتسب في نهاية المطاف هويّة جنسيّة، فيكون الجسد بذلك بناءً اجتماعياً مهيكلاً ناتجاً عن تنشئةٍ اجتماعيّة تنعكس بدورها على الحياة الجنسيّة للرجل والمرأة لتكون الأهمّية والهيمنة للأوّل، وهو ما يظهر في الوضعية الجنسية أثناء الممارسة ذاتها (وضع الفوقية)، بل إنّ الجسد بوصفه يعبّر عن حقيقةٍ بيولوجيةٍ وبما يقرّر من اختلافاتٍ بيولوجية بين الجنسين، وبشكلٍ خاصّ الاختلاف التّشريحي بين الأعضاء التّناسلية "يبدو وكأنّه التّبرير الطّبيعي للاختلاف المبني اجتماعياً بين النّوعين (genres)"[9].

هذه الفكرة لها جذورٌ عند الفلاسفة عموماً ولدى أرسطو(322-384) ق.م الفيلسوف اليوناني بشكلٍ خاصّ، حيث أقرّ بانحطاط المرأة وتفوّق الرّجل عليها وبالتّالي تسلّطه وانقيادها واعتبر ذلك فرقاً طبيعياً[10]، ومن الجليّ أنّها نظرة أنطولوجيّة دونيّة خالصة، فالمرأة في اعتقاده هي مجرّد وعاء سالبٍ مستقبلٍ، لأنّ الأصل في تكوين المولود هو النّطفة أي الحيوان المنوي أو بذرة الرّجل، فلا تمنحه الأنثى سوى الشّكل دُون المضمون من خلال ما توفّره له من مادّةٍ غذائيةٍ.

إنّها –المرأة- كما يضيف أرسطو من الرّجل كالسيّد من العبد بل وأقّل، فهي ناقصة وتقف في أدنى المراتب حيث تقترب من الطفل أو الغلام وكذلك الحيوان، وأفضل مكانٍ لها هو الحياة البيتية الهادئة الّتي تملك من خلالها السّيادة المنزليّة،بينما يتحكّم الرجل في الشّؤون الخارجيّة وكذلك في شؤونها، والمعنى زيادة الفوارق بينهما.

إنّ شجاعتها إنّما تكمن في مجرّد الانقياد أي الطاعة لقيادة رجلٍ أي ذكر، لأنّ جنس الذّكور أصلح للرّئاسة من جنس الإناث ما لم يكن التّركيب مخالفاً للطبيعة[11]، فالرّجل يتمتّع بنسبة ذكاءٍ أعلى وعلاقته بأنثاه هي علاقة تبعيّة (subordination) شبيهة بعلاقاته بخدمه وأنعامه أي حيواناته المنزليّة الّتي يملك والّتي تزوّده باليد العاملة أي بالجهد العضلي الّذي يستنكف عن بذله، وبذلك يظلّ أرسطو وفيّاً لمنطلقه الفلسفيّ منْ أنّ منَ النّاس بالطّبيعة من هو مؤهّلٌ للسّيادة أو القيادة، بينما البعض الآخر مؤهّلٌ للعبوديّة والطّاعة، وممّا لا شكّ فيه أنّ المرأة تنتمي للصّنف الثّاني وهو الرّأي الّذي سينحدر إلى المسيحيين في العصر الوسيط، ورأي شبيه سنجده عند الفلاسفة أمثال جون جاك روسو(1712-1788) وفردريك نيتشه (1844-1900).

إذن يمكننا أن نستخلص ممّا تقدّم مع بورديو أنّ المجتمع ينتج الرّجل والمرأة على حدّ سواء ويضع لكلّ منهما الحدود الّتي يسير بداخلها ولا يتعدّاها، من خلال الامتثال لجملةٍ من الأفعال والسّلوكيات، فالرّجل عليه أن يتميّز بالفحولة (virilté) والصّراع والمنافسة لينتزع الاعتراف، بينما المرأة فعليها الخنوع والخضوع، وبذلك فهي تتحوّل إلى شريكٍ في المحافظة على هذه الهيمنة وإعادة إنتاجها. إنّها تستدمج بطريقةٍ غير واعيةٍ من خلال التّنشئة الاجتماعيّة الّتي تعمل على ترويض جسدها وانفعالاتها حيث يعمل النظام الاجتماعيّ على فرض وترسيخ الاستعدادات لديها، ولعلّ هذا ما يبدو وبجلاءٍ في التّقسيم الجنسي للعمل، فللرّجل تُوكل مهمّات الذّبح والزرع والحصاد، وللنّساء مهمّات رعاية الأطفال والحيوان

ونقل سمادها والتقاط الزيتون أثناء القطاف عند قدمي الرّجل بينما يقُوم هو على إسقاط حبّاته بواسطة عصا، وهو سلوكٌ ذو دلالةٍ رمزيةٍ على الهيمنة الذكورية[12].

إنّ هذا التّرويض للجسد يخلق مهيمَناً عليه هو المرأة ويكوّن لديها انتقاصاً ذاتياً أي "هوية منتقصة"[13] وهو ما يجعلها تريد الارتباط برجلٍ أقصر منها أو أصغر منها سنّاً، وللإشارة فإنّ بورديو في دراسته لعادات وسلوكيات سكّان منطقة القبائل بالجزائر يحدّد بعض مظاهر التّمييز الاجتماعي غير الجنسيّة، كأن يوضع المولود الذّكر على يمين أمّه لتُوضع بينهما أغراض ذكورية بامتياز كسكّينٍ كبيرٍ أو واحدةٍ من حجارة المنزل، بينما توضع الأنثى على يسارها. ولا يتوقف فعل التّرجيل (virilisation) أي تجريدهم من كلّ ما هو أنثوي عند هذا الحدّ، بل يتعدّاه إلى قصّ شعر الطفل للمرّة الأولى – علماً أنّ الشّعر علامة أنثوية- يقوم به الأب، وفي أوّل دخولٍ له إلى السّوق بين السّادسة والعاشرة - والسّوق مكان للرّجال- يلبّس الطفل الجديد ويغطى كما يقول بورديو بحزامٍ من حريرٍ ويتلقى خنجراً وقفلاً ومرآةً، بينما تضع أمه بيضةً في طاقية البرنس الّتي يتوجّب عليها كسرها عند مدخل السّوق ويقوم بفتح القفل، وهي في حقيقة الأمر تعبّر عن أفعالٍ رجوليّة لفضّ البكار، ويعمل الأب إلى إرشاده في السّوق الّذي هو عالمٌ ذكوريّ حصريّ، ويقدّمه إلى الرّجال الآخرين، وفي طريق العودة يقومان بشراء رأس عجلٍ، وهو رمزٌ قضيبيّ، بسبب قرونه، ويرتبط بالشّرف (nif)[14].

أمّا عن عملية تطبيع الأنثى وتأنيثها فيتلخّص في فرض حدودٍ عليها وبخاصّةٍ على جسدها وحركاتها من أجل منحها هويّة أنثوية، وهي تتأصّل في شكل حالاتٍ دائمةٍ من الإمساك بالجسد والتّمالك، بما أنّ الجسد مقدّس ومحرّم.. وهكذا تتعلّم المرأة القبائلية الشابّة المبادئ الجوهريّة لفنّ العيش أنثوياً، وللهيئة الحسنة جسدياً وأخلاقياً، وتعلّم اختيار لباسها باختلاف وضعياتها أو حالاتها المتعاقبة: طفلة صغيرة، وعذراء بالغة، وزوجة وربّة عائلة وأن تكسب شيئاً فشيئاً بالمحاكاة اللاّواعية أو الطّاعة العلنية كيف تربط شعرها وتحرّك أو تتبث هذا الجزء أو ذاك من جسدها في السّر أو عرض الوجه أو تصويب النّظر على حدّ سواء[15].

إنّها التّربية الّتي تسعى إلى إظهار الخضوع الأنثويّ وترجمته في مفاهيم الانحدار والتذلّل والطأطأة والامتثال والوداعة والوضعيات المقوّسة المتحفّظة، بينما وضعية الاسترخاء – وضع الرّجلين على المكتب، التّأرجح على المقعد..- فهي للرّجل لأنّها تعبّر عن الثّقة والسّلطة، وفي السّياق ذاته يؤكّد بورديو أنّ استعمالات الجسد الأنثوي كما هو في الدّعاية اليوم إنّما هو تابعٌ بوضوحٍ لوجهة نظرٍ ذكوريّة[16]. إنّه وضعٌ يتّسم بنوعٍ من العنف النّاعم الّذي تخلقه ذهنية الحكم السّلبي المسبق ضدّ المؤنّث، والّذي تدعّمه النّساء وتؤكّدنه بفعل التّربية والتّطبيع.

-ثانياً: العنف الرّمزي أو العنف النّاعم اللاّمحسوس.

ويشكّل قضيّةً محوريّة في أعمال بورديو، وهو "يتمأسس بواسطة الانتساب الّذي لا يستطيع المهيمَن عليه إلاّ منحه للمهيمِن، وذلك عندما لا يحظى المهيمَن عليه –لأجل التّفكير بذلك، أو التّفكير بنفسه، أو خيراً من ذلك التّفكير بعلاقته مع المهيمِن- إلاّ بأدوات المعرفة المشتركة بينهما، والّتي ليست سوى الشّكل المستدمج لعلاقة الهيمنة الّتي تظهر هذه العلاقة على أنّها طبيعيّة.."[17]، ومعنى ذلك أنّ المرأة من دُون أن تشعر ولكن بشكلٍ طوعيّ تسلّم بتبعيتها للرّجل الأطول والأكبر سنّاً كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وبهيمنته، هذا الاستعداد الّذي في النّساء ما هو في واقع الأمر إلاّ نتيجة ذلك الحكم السّلبي المسبق ضدّ كلّ ما هو مؤنّث والمؤسّس في نظام الأشياء ذاتها.

هذه القوة الرّمزية كما يضيف بورديو هي أولاً شكلٌ للسّلطة تمارس على الأجساد مباشرةً خارج كلّ إكراهٍ جسدي.. فتعمل على إثارة الاستعدادات الّتي أودعها عمل التّلقين والاستدماج في الّذي أو اللّواتي، بفعل ذلك منحوه قوة..."[18]، والاستعدادات هنا تقُوم بعمل المحرّكات وبالتّالي فإن النّظام الاجتماعيّ يستهدف ضبط الرّجال والنّساء على حدّ سواء مع مراعاة التّفاوت في مستوى الضّبط بينهما.

إنّ "أفعال المعرفة" هذه تشير لا محالة إلى أن المهيمَن عليهم يساهمون من دُون علمهم غالباً، وضدّ مشيئتهم أحياناً، في تمرير الهيمنة عليهم عبر قبولهم الضّمني بالحدود المفروضة (عيب، خجل، قلق أو حبّ، إعجاب..)[19]، هذه الأخيرة قد تتّخذ لها مظهراً فيزيولوجياً فاضحاً كالاحمرار والتّلعثم والارتجاف، وهي في حقيقة الأمر أساليب للخضوع تصدر عن المهيمَن عليه رغماً عنه، وتبرز بجلاءٍ ذلك الانشطار الدّاخلي الّذي يصيب الأنا في صراعها بين توجيهات الوعي والإرادة وما تفرضه الرّقابة الاجتماعيّة[20]. إنّ العنف الرّمزي يتأصّل في الأجساد على شكل استعدادات.

هذا الوضع الّذي كرّسه هذا الأسلوب الماكر في فرض الهيمنة بحيث يتحوّل المهيمَن عليه ذاته إلى أداةٍ لتكريسها، يجعل المرأة تلجأ إلى ممارسة الإقصاء الذاتي بدلاً عن الإقصاء الصّريح في حال مُنحت بعض الحرّيات كالتّعليم أو غيرهن وهو ما يتجلّى لديها في رهاب الأمكنة أو الفضاءات المفتوحة أو العموميّة الّتي هي في الأصل حكراً على الرّجال، وهو ما يدعوه بورديو "رهاب الأمكنة"[21]. لا يمكن لهذه السّلطة الرّمزية أن تمارس من دون مساهمة أولئك الّذين تصيبهم، ولهذا فإنّ لنا أن نتساءل: هل للنّساء من مخرجٍ من هذا الوضع الاضطهادي وشبه الطّوعي الّذي اندمجن فيه؟

إنّ الثّورة الّتي حاولت الحركة النّسائية القيام بها عبر المناداة بتحرير الضّمائر والإرادات، لا يكفي فيه الجهد التّنويري بقدر ما يحتاج إلى تغييرٍ وتحويلٍ جذريّ لتلك الشّروط الاجتماعيّة الّتي تنتج الاستعدادات لدى المهَيمَن عليهم[22]، والمقصود أنّه من الضّروري تحويل البنى بخاصّةٍ ما يسمّيه بورديو سوق المتاع الرّمزي الّذي تعامل فيه النّساء كأشياء(objets)[23].

يتبيّن ممّا تقدّم أنّ مبدأ الدّونية والاستبعاد الممارس على المرأة والّذي تغذّيه تلك الممارسات الطّقوسية، من شأنه أن يتجلّى وبوضوحٍ في مؤسّسة الزّواج، حيث تظهر المرأة باعتبارها شيئاً أي رمزاً يمسك به الرّجل وتختزل مكانتها بذلك إلى رأسمالٍ رمزيّ يتمّ تبادله ومقايضته ربّما بما أنّها سلعة متبادلة، ومنه فداخل اقتصاد الممتلكات الرمزية يتمّ اعتبارهنّ هباتٍ للتّبادل وقنواتٍ للتّواصل بين القبائل وطريقة يكسب بها الرّجال الشّرف والسّلطة، بل قد " توظّف بعض النّساء في مبادلاتٍ من شأنها أن تنتج تحالفاتٍ.. أي رأسمالٍ اجتماعيّ ورمزيّ"[24].

في هذا السّياق تجدر الإشارة إلى نقطةٍ مهمّةٍ وهي أنّ الرّجل ليس طرفاً مستفيداً دائماً، بل "إنّ الرّجال هم أيضاً سجناء وضحايا بتكتّم للتمثّل المهيمن.. فممارسة الهيمنة ليست مسجّلة في طبيعةٍ ما، ويتوجّب بناؤها عبر عمل تطبيعٍ اجتماعيّ طويل.."[25]، والرّجولة بهذا المعنى ترادف القوّة والعنف أيضاً".. فالرّجولة المتّفق على أنّها قدرة معيدة للإنتاج: جنسيّة واجتماعيّة، لكن أيضاً على أنّها قابلة للصّراع وممارسة العنف (في الثّأر تحديداً).."[26]، فشرف المرأة سلبيّ يمكن خسارته والدّفاع عنه (عذرية وإخلاص)، بينما شرف الرّجل هو في البحث عن المجد والتميّز في المجال العامّ، ومن هذا التّصيف يمكن أن نستشفّ أنّ

الامتياز الذّكوري قد يكون فخًّا أيضاً. في هذ الصّدد يقول بورديو:" إنّ الرّجولة كما نرى مقولة علائقية للغاية، شيّدت قبالة الرّجال الآخرين ومن أجلهم، وضدّ الأنوثة، على شكل خوفٍ من المؤنّث، وداخل النّفس ذاتها"[27].

-ثالثاً: الذّكورة بوصفها نبًالة.

ينظر النّظام الاجتماعي للذّكورة على أنّها نبالةٌ وشرف وهو ما يُلاحظ بجلاءٍ في التّراتب المراعى في إسناد مناصب العمل، وذلك بسبب منطق المعيار المزدوج[28]، هذا الأخير الّذي بمقتضاه تُوكل إلى المرأة أعمالاً سفلية أو دنيا من قبيل عمل المضيفة والمنشّطة والسّكرتيرة والممرّضة، أي أنّها في حياتها المهنيّة توجّه نحو وظائف تكُون فيها بمنزلة التّابع، بينما يحتلّ الرّجال المناصب القيادية والتّوجيهية، فهو الطّبيب والمدير، بل " إنّ المهمّات ذاتها عندما يقوم بها الرّجال تكون نبيلة وصعبة في حين هي تافهة، لا معنى لها وسهلة عندما تقوم بها النّساء، ولعل مثال الطّاهي أقوى نموذج (le chef)[29].

والمعنى ممّا تقدّم أنّ كلّ الأعمال ذات القيمة المجتمعيّة، من حيث الحظوة أومن حيث التّعويض، تبقى من نصيب الرّجال بينما لا تشغل النّساء سوى المناصب البسيطة، الّتي تكون في غالبية الأوقات تابعة لسلطةٍ عليا ذكورية. وكما سبقت الإشارة إلى ذلك فإنّ بعض المهن التي كانت تمتهنها النّساء لم يكن ينظر لها باعتبارها عملاً وفنّاً إلا بعدما تعاطاها الرّجال ومارسوها، إذ وجود المرأة داخل المطبخ أمرٌ طبيعيّ، بينما والرّجل داخله فشيء آخر تماماً... إنّه يعمل ويبدع.

من الواضح أنّ المرأة تُستبعد بشكلٍ متعمّدٍ من مراكز السّلطة "وتختزل مطالبها إلى نزواتٍ يمكن تبريرها بحديثٍ تخفيفي، أو بالتّربيت على الخدّ.. ولعلّ هذا ما يفسّر الضّعف الكبير في تمثيل النّساء في مراكز السّلطة، ولا سيما الاقتصاديّة والسّياسية"[30]، وهذا في الواقع ليس سوى "خاصّة للمهيمنين بوصفهم قادرين على جعل أسلوب وجودهم الخصوصيّ في الوجود معترفاً به على أنّه أسلوبٌ كونيّ (universel)..."[31]

إنّ الرّجل لا يعيبه شيء هو مثلٌ شعبيّ قديم ألفناه منذ الصّغر وبخاصّة عندما يتعلّق الأمر بزوج مستقبلي، في حين ينظر إلى (الأنثى-الجسد) الخاضع للهيمنة الذّكورية باعتباره في حالةٍ من عدم الأمان الجسديّ، أو كما يقول بورديو في "حالٍ من التّبعية الرّمزية: إنّهن موجوداتٌ بواسطة، ومن أجل نظرة الآخرين، أي بمثابة موضوعاتٍ مضيافة، جذّابة وجاهزة وننتظر منهن أن يكنّ متحفّظات وحتّى منزويات.."[32].

من المسائل الخطيرة الّتي تترتّب عمّا سلف هي وجود النّساء في وضعٍ من الإكراه المزدوج، إنهنّ تصرّفن كالرّجال قوبلن بالاستنكار لأنّهم بذلك يزاحمونهم على مراكز السّلطة، وإن هن تصرّفن بضعفٍ ظهرن عاجزاتٍ وغير متكيّفاتٍ مع الوضع، فإمّا التفتّح أو الانغلاق، أو التحفّظ والإغراء، وربّما يبقى الجمال (la beauté) الأنثوي أحد أهمّ الأسلحة الفتّاكة، فموادّ التّجميل تميل إلى تمجيد الجسد وجعله لغة إغراء، ويظهر ذلك فيما توظّفه النّساء من وقتٍ ومالٍ وجهدٍ لتجميله[33].

ربّما بوسعنا وصولاً إلى هذه المرحلة من التّحليل أن نطرح السّؤال عن الرّؤية الأنثويّة للمركزّية الذّكورية، وهنا يلج بنا بورديو إلى عالم فرجيبا وولف في روايتها نزهة في الفنارة، فالسيّد رامسي هو نموذجٌ للذكر ربّ العائلة الآمر النّاهي الّذي لا يخطأ أبداً والّذي يُفاجأ في وضعية لعبٍ صبيانيّ من حيث لم يكن يتوقع ذلك، وهو وضعٌ حرجٌ لا محالة لأنّه وضعٌ طفوليّ، بينما السّيدة رامسي تتصرّف تجاه هذا السّلوك بحكمةٍ وعاطفةٍ أمويةٍ وكأنّها

تجد نفسها عبر زوجها، لأنّها تشارك في السّلطة من خلاله،" وبما أنّهن-النّساء- مبْعداتٌ عن ألعاب السّلطة، فإنّهن مهيّئاتٌ للمشاركة فيها بواسطة رجالٍ منخرطين فيها، سواء تعلّق الأمر بالزّوج أو الإبن..."[34]. إنّه يعكس نوعاً من الحبّ القدَري الّذي ليس في هذه الحالة سوى حبّ المهيمِن وحبّ هيمنته.

-رابعاً: تحوّل علاقات الهيمنة.

يذهب بورديو إلى أنّ كلّ شيء يتغيّر في المجتمع باستثناء البنيات الجنسيّة الّتي تبقى محافظة على استقرارها واستمرارها. هذه الديمومة، لها علاقة بنظامٍ طبيعيٍ جامدٍ لا يُمكن تغييره لكنها ثمرة بناءٍ وإعادة بناءٍ مستمرّ لبنيات الهيمنة الذّكورية، الّتي تساهم مجموعة من المؤسّسات الاجتماعيّة في استمرارها عن طريق إعادة إنتاجها، هذه المؤسّسات هي الكنيسة والدولة والمدرسة...[35]، فالأسرة ترجّح كفّة الأطفال الذّكور عند تقسيم العمل بين الجنسين[36]، والكنيسة تؤكّد على قوامتهم وعلى القيم البطريكية ومملكة الحقّ الإلهي القائمة على سلطة الأب[37]،أمّا الدولة فتمركز كلّ سياساتها حولهم لأنّها تصادق على سياسة الكنيسة وتؤيّد نظرتها باعتبار التفوّق المطلق للرّجال[38].

ومنه فإنّ المجتمع تتضافر كلّ مكوّناته على إنتاج وضمان استمرار الهيمنة الذّكورية، وهو ما يتجلّى بخاصّةٍ في سياسات الدولة الحديثة والمعاصرة تجاه المرأة، حيث تعيد إنتاج التقسيم المتقادم بين المذكّر والمؤنّث في بنيتها ذاتها... فيكون للنّساء فيها جزءٌ مرتبطٌ بالدّولة الاجتماعيّة بوصفهنّ متلقّيات مميّزات لرعايتها وخدماتها...[39].

وعلى هذا الأساس كان لزاماً على الحركات النّسوية أن تنتبه لكلّ هذه البنيات وتكفّ عن التّركيز على مؤسّسة الأسرة باعتباره االبنية الاجتماعيّة الوحيدة التي تنتج وتعيد إنتاج هذه الهيمنة. هذا الوضع لن يستقيم إلاّ بفعل مقاومةٍ جماعيّ يتّخذ من الإصلاحات الحقوقيّة هدفاً له، ويقوم على نبذ التّمييزات الجنسيّة ويهزّ المؤسّسات الّتي تدعّمه وتؤيّده وهو ما يدعو إليه بورديو ذاته، عبر الحركة النّسوية الّتي جعلت من هذه الظّاهرة شيئاً يجب يُتبرّأ منه، ولعلّ من أبرز العوامل الّتي أحدث التغيّر في وضعية النّساء هو بلوغهنّ مرحلة التّعليم الثّانوي والعالي، وما أعقبه من تمثيل النّساء في المهن الفكريّة أو في الإدارة والصّحافة والتّلفزيون والسّينما والعلاقات العامةّ .... رغم بقائهن مستبعدات من مراكز النّفوذ بخاصّةٍ في الاقتصاد والمالية والسّياسة[40].

برغم ذلك فإنّ مبدأ التّقسيم الذّكوري لا زال يطبّق داخل الاختصاصات الجامعيّة وأيضاً في مسألة بلوغ مختلف المهن.. وخلاصتها أنّ المساواة الّتي تحقّقت بمعية الحركة النّسوية هي مساواةٌ شكليّة لأنّ النّساء يشغلن دائماً مواقع أقلّ حظوةً من الرّجال. إنّها مواقع وضيعة وهشّة وأقلّ رفعة كقطاع الخدماتية، ليبقى الرّجال بذلك مسيطرين على الفضاء العامّ L'ESPACE (PUBLIC)[41] وعلى حقل السّلطة، ومعنى ذلك أنّ فعل المقاومة الرّجالي يظلّ قائماً.

في الأخير يشير بورديو إلى مسألة أساسيّة تقلب علاقة السّيطرة رأساً على عقب، فالحبّ هو هيمنةٌ مقبولةٌ مجهولةٌ بصفتها كذلك، ومعترفٌ بها عملياً، في الهوى السّعيد أو البائس..."[42]، حيث تحدث العلاقات الحميمة بين الطّرفين وهي علاقاتٌ سحرية، قلباً لعلاقة الهيمنة لتبدو الهيمنة مهيمَنٌ عليها، وهو كما يسمّيه المفكّر هدنة إعجازيّة، ليكون الحبّ بذلك علاقة تجمع بين الرّجل والمرأة من غير أن تُعلي من شأنه وتحطّ من قدرها[43]. إنّ علاقة الحبّ هي علاقة اعترافٍ متبادلٍ قد تخلُو من طابع الهيمنة، لأنّها تمنح المرأة مكانتها الحقيقيّة وتغيّر نظرة الرّجل إليها. إنّه عالم اللاّعنف الّذي يسمح بإرساء علاقاتٍ تبادلية كاملة.

خاتمة:

بناءً على سلف يمكننا أن نقول بأنّ التّحولات التّاريخية الّتي عرفتها ولا تزال تعرفها المجتمعات المعاصرة، أبرزت ثوراتٍ جديدةٍ بأصواتٍ كانت خامدة ومهمّشة، راحت تطالب بحقوقها وهويّتها، والنّسوية هي إحداها. هذه الحركة الّتي راحت تسعى بكلّ ما أُوتيت من قوة إلى الكشف عن المكنون وهدم التّصورات القاتمة، من خلال النّقد الثّقافي لواقع الهيمنة الذّكورية، الّذي يستهدف إقرار نوعٍ من القوانين الاجتماعيّة والإيديولوجيات الجديدة والثّقافات الكونيّة الّتي تعترف بالمرأة وحقّها في الحياة بمساواةٍ مع الرّجل على جميع الصّعد، وبالتّالي تأسيس خطوةٍ خارج النّسق الذّكوري بدءاً بإسقاط قوانين الأبوّة المستغلّة والمتحكّمة بها.

---

[1]بيار بورديو، **الهيمنة الذكورية**، ترجمة: سليمان فعفراني، مراجعة: ماهر تريمش، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2009)، ط1، ص ص(16-15).

[2]**هي اديلين فيرجينيا وولف** أديبة إنجليزية روائية ومن كتّاب المقالات، اشتهرت برواياتها التي تمتاز بإيقاظ الضمير الإنساني، وتعد واحدة من أهم الرموز الأدبية في القرن العشرين. كانت روايتها الأولى ذات طابع تقليدي مثل رواية " الليل والنهار" 1919 واتخذت فيما بعد المنهج المعروف بمجرى الوعي أو تيار الشعور، كما في "غرفة يعقوب" 1922، و" السيدة دالواي" 1925 و" إلى المنارة " 1927، و"الأمواج" 1931، ولها روايات أخرى ذات طابع تعبيري، منها رواية «أورلاندو» 1928 و" الأعوام".

[3]رغم عدم وجودها في المعجم الفرنسي إلاّ أنّها تعني تلك النّظرة التي تختصر العالم في قطب واحد هو الذكر وتنحاز إليه، أي تلك النظرة المتمركزة ذكورياً.

[4]بورديو، **الهيمنة الذكورية**، ص 22.

[5]بورديو، **الهيمنة الذكورية**، ص27.

[6]المرجع نفسه، ص 12.

[7]المرجع نفسه، ص25.

[8]المرجع نفسه، ص28.

[9] المرجع نفسه، ص 28.

[10]أرسطو، **في السياسة**، ترجمة: الأب أغسطين بربارة البولسي، (بيروت: اللجنة الدولية لترجمة الرّوائع، 1980)، الباب 1،الفصل 2، فقرة 12، ص 15.

[11]المرجع نفسه، فصل 5، فقرة 1، ص 37.

[12] بيار بورديو، **الهيمنة الذكورية**، ص 47.

[13]المرجع نفسه، ص 56.

[14]المرجع نفسه، ص 50.

[15]المرجع نفسه، ص 51.

[16]المرجع نفسه، ص 54.

[17]المرجع نفسه، ص 62.

[18]المرجع نفسه، ص ص (67-66).

[19]المرجع نفسه، ص 67.

[20]المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[21]المرجع نفسه، ص 68.

[22]المرجع نفسه، ص 71.

[23]المرجع نفسه، ص 72.

[24]المرجع نفسه، ص 76.

[25]المرجع نفسه، ص 82.

[26]المرجع نفسه، ص 84.

[27]المرجع نفسه، ص 86.

[28]المرجع نفسه، ص94.

[29]المرجع نفسه، ص 95.
[30] المرجع نفسه، ص 94.
[31]المرجع نفسه، ص 98.
[32]المرجع نفسه ص 103.
[33]المرجع نفسه، ص 148.
[34]المرجع نفسه، ص 121.
[35]المرجع نفسه، ص 127.
[36]المرجع نفسه، ص 130.
[37]المرجع نفسه، الصفحة نفسها
[38]المرجع نفسه، ص 132.
[39]المرجع نفسه، ص 133.
[40]المرجع نفسه، ص 136.
[41]المرجع نفسه ، ص 141.
[42]المرجع نفسه، ص 162.
[43]المرجع نفسه.

المراجع:

- بيير بورديو، **الهيمنة الذكورية**، ترجمة:سليمان فعفراني، مراجعة: ماهر تريمش، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2009)، ط1.
- أرسطو، **في السياسة**، ترجمة: الأب أغسطين بربارة البولسي، (بيروت: اللجنة الدولية لترجمة الرّوائع، 1980).